# حكايتي مع التعليم

سعيد زياد عرباس

**مُنذ صغري وأنا أرى في المعلم الشيء الكبير، الذي يصعب الوصول إلى مكانته، لديه من المخزون العلمي والحياتي ما يجعله قادراً على الإجابة عن كل تساؤل يخطر في بال أي دارس، وخصوصاً ضمن المادة التعليمية التي يقوم بتدريسها لنا.**

بعد أن بدأت بالمرحلة الإعدادية، كان قد مرّ عليّ الكثير من المعلمين الذين ما زلت أذكرهم، فمنهم ما كان مخلصاً مُحباً لعمله، ومنهم من كان متذمراً غاضباً عابساً لدرجة أوصلتني في كثير من الأحيان لكُره كل ما يتعلق بالعلم والتعليم داخل المدرسة، باستثناء الأصدقاء.

هنا قد بدأت التساؤلات تكثر في ذهني، لماذا هذا المعلم يحب مهنته؟ ولماذا ذاك يكرهها؟ فكنت أرجع ذلك على الأغلب لشخصه في التعامل مع عمله، دون تحديد الأسباب الرئيسية وراء ذلك.

في هذه المرحلة من العمر، كنت قد بدأت بأخذ القرار المهني الخاص بي في المستقبل، كأي طفل يحب أن يكبر بسرعة، لم أكن أفكر بأي شيء سوى بالحاسوب، وكبرت على هذا الشيء.

لكن الصدمة التي كانت في انتظاري وآلمتني كثيراً هي نتيجتي في امتحانات التوجيهي الوزارية، كان هناك فارق في 5 علامات كاملة بين معدلي في التوجيهي وبين الحد الأدنى من معدل قبول كلية تكنولوجيا المعلومات في جامعة النجاح الوطنية، لم يكن أمامي سوى طريق واحد، إما كلية العلوم التربوية، وإما بلى، أقصد بكلمة بلى أنه ما تبقى من كليات قد تستقبلني هي التربية الرياضية والفنون الجميلة، وهي بعيدة كل البعد عن اهتماماتي وطموحاتي المستقبلية.

قررت هنا دخول كلية العلوم التربوية لمحاولة رفع معدلي، وذلك لإعطاء نفسي محاولة أخرى لدخول كلية تلبي تطلعاتي للمستقبل. خلال السنة الأولى استطعت من ذلك بحمد الله، وهنا قد بدأت بالحيرة في اختيار القرار المناسب، هل أضيع من وقتي سنة كاملة وأتجه نحو كلية تكنولوجيا المعلومات، أم أبقى في كُليتي وأتوجه لتخصص "أساليب تدريس تكنولوجيا" التي تبقيني ضمن اهتماماتي الحياتية.

أصدقائي في الجامعة كانوا ينصحونني بالبقاء بحُكم الزمالة وسهولة المواد بالنسبة للكليات الأخرى، وأصدقائي من أيام المدرسة كانوا ينصحونني بأن أنتقل للكلية الأخرى، ويعللون ذلك بتفسيرات مختلفة منها السخرية من مهنة التعليم، التذكير بما كان يحصل مع المعلمين أيام دراستنا، وبعضها حول نظرة المجتمع لمهنة التدريس، ومنها القضاء على نفسي ودفني وأنا حي، ومنها ما هو الكثير الكثير من العبارات المحبطة.

كان القرار النهائي بأن أُكمل في كلية العلوم التربوية، وأن أتقدم بعد الانتهاء منها إلى تخصص إدارة الأعمال بالماجستير، وذلك القرار يرجع لرفضي التام الاقتناع بأني سأخسر من عمري سنة دراسية كاملة. وأن أرجع من البداية في كلية جديدة.

مضت الأيام وبفضل الله تخرجت من الجامعة، وقمت بتقديم طلب الوظيفة لمديرية التربية والتعليم في قلقيلية لمهنة "معلم تكنولوجيا". باختصار، قمت بالتقدم للامتحان وحصلت على أفضل نتيجة بين

أفراد جنسي وبفارق لا بأس به، هنا قد بدأ التوتر يسكنني حتى قبل خروج النتائج، كنت دائم التساؤلات: هل فعلاً سأصبح معلماً؟ يا رب ما الذي ينتظرني؟

بعد ذلك بأقل من شهرين تم إعلان أسماء المقبولين في الوظيفة وكنت منهم، حصلت على أول خيبة أمل، وهي أني مُفرز في مدرستين وليس في مدرسة واحدة، أي بنظام نصف المعلم، غير ذلك كله، بُعد المسافة التي سأقطعها كل يوم للوصول لأيٍّ منهما.

في ذلك الوقت كان لأبي الفضل الأكبر بعد ربي بالشد على يدي لهذه البداية المخيبة، مهوناً عليَّ الأمر بسرده جزءاً بسيطاً من بداية حياته المهنية القاسية كمعلم مغترب في المملكة العربية السعودية الشقيقة.

في بداية الفصل، كان هناك 3 أيام للهيئة التدريسية فقط لكي يرتبوا أمورهم وأمور مدارسهم قبل البدء بعملية التدريس. وعند وصولي للمدرسة، بدأ قلبي بالخفقان، إلى أين أنا متجه؟ أنا معلم؟ كيف سيكون ذلك؟ كان في إستقبالي بعض المعلمين الذين تواجدوا قبلي في ذلك اليوم، لم يخلُ الاستقبال من عبارات الإحباط التي كانت على سبيل المزاح، التي لم أنساها إلى هذا اليوم لما تركت في قلبي الكثير من التشاؤم. نعم، لقد زعزعت من عزيمتي كثيراً. بعد ذلك قام بعضهم الآخر بإسكاتهم والحديث عن أهمية هذه المهنة، ومدى علو شأنها في المجتمع، والغريب في الأمر، أن من قام بإحباطي في البداية قد أيدوا كلام الآخرين، أتوقع ذلك حصل لما لمسوه مني بعد سماع كلامهم لي في ذلك الوقت.

بعد ذلك قام المدير بالترحيب بي أمام الجميع، وأوضح لي بأن أبواب المساعدة والنصح والإرشاد مفتوحة لي على مدار الوقت، هنا بدأت بالارتياح قليلاً، تسلمت جدول الحصص والصفوف التي سأدرسها، وكانت من الصف الخامس إلى الصف الثامن.

في اليوم التالي، توجهت للمدرسة الأخرى، كان الأمر أقل رهبةً، بدأت أتعرف على المدرسة، من إدارة ومعلمين وأذنه، تسلّمت جدولي وحمدت ربي كثيراً، لقد كانت المرحلة نفسها التي سأدرسها في المدرسة الأولى. توجهت إلى غرفة الحاسوب وجلست مع معلم الحاسوب الآخر، لقد كان رائعاً بكل ما في الكلمة من معنى، لم يخفِ على وجهه حُبه لمهنته، سألته أنت تملك شهادة في تكنولوجيا المعلومات وليس في أساليب التدريس، إذن فرصك أكبر بالعمل بشيء آخر، لمَ التعليم؟ تبسم وقال لي إنه يحب مهنته كثيراً، وعزز ذلك بالمميزات التي كنت أريد أن أسمعها في ذلك الوقت أكثر من أي شيءٍ آخر.

مضى اليومان الأولان في حياتي المهنية بشكل ممتاز، لكن كان ينقصهما الكثير، لأنهما بدون طلبة.

عند دخولي المدرسة في أول يوم دراسي بوجود الطلبة، وجدت أن كل أنظار الطلبة تتجه نحوي، سمعت بعض التعليقات منهم، منها ما هو يختص بمظهري الخارجي، ومنها ما هو يختص بعمري، ومنها على شكل تساؤلات بين بعضهم البعض.

أذكر أول لحظة دخلت فيها على صف دراسي، كانت لحظة لا توصف، الأمر ليس بذلك التعقيد، بدأت أرى في الأطفال أصدقائي أيام الدراسة من خلال ترتيبهم في المقاعد، وكنت سعيداً جداً في داخلي لكل ما يجول في خاطري، كان تركيزي أكثر شيء على المقعد الثالث بجانب الواجهة، لقد أمضيت معظم سنواتي الدراسية في ذلك المقعد.

انتهت الحصة الأولى لي، كانت في ظاهرها كتهيئة لطلبتي، لكن في خفاياها كانت لتهيئتي أنا. بعد ذلك مشيت في ممر المدرسة متجهاً نحو مكان جلوسي في غرفة الحاسوب، كنت ألقي بالتحية على كل من أمر به، من هيئة تدريسية وطلبة، كنت سعيداً جداً أن الأمور بدت جيدة، تلاشت وقتها الكثير من الإحباطات التي واجهتها سابقاً، وبدا التفاؤل يملأ قلبي.

كنت عند دخولي الفصل لأول مرة أبدأ بالتحية، وبعدها أضع قوانيني الخاصة، وما أحب وما أكره من الطلاب أن يكونوا عليه، كنت صارماً بعض الشيء في البداية على غير طبيعتي. أعتقد أنني قمت بذلك لما ترتب في ذهني من أفكار بأن الطلاب بهذه المرحلة هم أشرار، وليسوا ودودين، همهم الوحيد هو المشاغبة، وتعطيل الدراسة داخل الفصل. لكني وجدت العكس تماماً.

لذلك، قررت أن أكون أقرب إليهم، مستغلاً سني لأني كنت ما زلت الأصغر في الهيئة التدريسية. بمحاولة اكتشاف ما بداخلهم عن طريق المزاح واللعب والحديث عن اهتماماتهم، شعرت أني كصديقهم، يرجعون لي في كل صغيرة وكبيرة داخل المدرسة حتى في حياتهم الخاصة، بدأت أشعر بالنشوة هنا، وبدأت أردد في داخلي عبارة "أنا على الطريق الصحيح للنجاح".

لقد وجدت في معاملتي معهم أنه يجب عليّ كمعلم الاهتمام بكل طالب أدرسه، ذلك لأنه عندما أغفل عن الاهتمام بأحدهم من دون وعي، أجده بدأ يقوم بأعمال غريبة، منها ما هو مُخل بالنظام لكي يلفت انتباهي وانتباه زملائه له، كنت أتعامل مع تلك الحالات مباشرة وأحاول إعادتها إلى وضعها الطبيعي عن طريق الاهتمام بهم أكثر.

مع مرور الوقت، وبكل صراحة، مررت بالكثير من لحظات الملل من عملي، مع إيماني التام بأن كل شخص في هذا العالم لديه شعور الملل ذاته من مهنته. في نهاية العام قررت أن أتقدم لدراسة الماجستير، على أمل أن يتغير شيء من وضعي الحالي في العمل. تقدمت بطلبين؛ الأول إدارة الأعمال، والثاني الإدارة التربوية، مع تركيزي الشديد على إدارة الأعمال لما لها من آفاق أكبر في الحياة، على الأقل تخلصني سنتين لاحقتين من نظرة المجتمع لي، بجوابي لهم بأني أدرس إدارة الأعمال، وأن التعليم هو مرحلة لا أكثر، أكسب من ورائها النقود لكي أستطيع أن أكمل دراستي.

في ذلك الوقت كنت قد بدأت في برنامج دبلوم بعنوان "الدراما في

سياق تعلمي" مع مؤسسة فلسطينية رائعة، في نظري هي الوحيدة التي تهتم في التعليم ونوعيته، مؤسسة لا أبالغ إن قلت أنها هي الوحيدة التي تهتم بالمعلم الفلسطيني، قد غيرت الكثير من نظرتي للمهنة، بل غيرت من نظرتي للتعليم بشكل كلي.

ظهرت نتائج القبول للماجستير، لا أعرف هو من حسن حظي أو سوئه أني قُبلت في التخصصين، وكان معي فقط أيام قليلة لأقرر التخصص وإلا فقدت مكاني، وقتها قررت أن أبقى في مهنتي الحالية وأن أتطور فيها باختياري تخصص الإدارة التربوية، وأمضي بها في انتظار اليوم الذي سأكون فيه صانع قرار، لعل وعسى أن أستطيع أن أغير شيء من الوضع الحالي للتعليم.

وأنا الآن بعد عامين فقط من العمل سعيداً جداً بمهنتي كمعلم، آملاً من ربي أن يسهل طريقي لتقديم كل ما لدي لهذه المهنة العظيمة، التي هي شئنا أم أبينا من أشرف المهن على وجه الكرة لأرضية.

**مدرسة ذكور حجة الأساسية – قلقيلية**

من إحدى زيارات المعلمين الفلسطينيين إلى المدارس البريطانية.